

٢ - جامع احمد ابن طولون

[حديث ألقى في نادى النجادة في ليلة القدر]

للأستاذ أحمد رمزي بك

تصل مصر في سوريا ولبنان

إنه لمن غير المستصعب والمستغرب أن يقيم رجل المصيرية دولة بين أهله وعشيرته ، ولكن أن يخرج رجل وحيد ينحدر من سلالة في أواسط آسيا ، فيؤسس ملكاً عربياً يضم مصر والشام والنفوذ والمواضع ، ويسيطر بذكائه وفطنته فيقود ، وينتصر ، وتخضع له الخاصة والعامة ، وتدين له الرقاب ويقارع أكبر سلطة شرعية ، ذلك أمر لا يتم إلا لرجل قد امتاز عن كافة الناس وخصته العناية بصفات من الأخلاق والمزايا النفسية لا تتوفر في غيره .

ويذكرني ذلك بما كتبه أحد مفكرى الغرب عن عطاء الرجال في القرن العشرين إذ قال : إن هناك قوات جامعة من قوى الطبيعة تسبح في فضاء هذا الكون ، فتصيب الرجل العظيم الذى هيأته العناية لدرر فاضل في تاريخ الإنسانية ، وفتره فداستيقظ إذ لمسته وأفاق فقبض على هذه القوى بكتائ يديه ، فدانت له الجماعات وخضعت لشبثته ، فإذا هو على رأسها يسخر هذه القوى ويدفعها إلى الأمام فيسير مجرى الحوادث ويكتب التاريخ كما يشاء ، ذالك هو أبو العباس احمد بن طولون ، رجل من عطاء التاريخ العربى ملك مصر وقاد وانتصر .

ولسنا في موضوع الحديث عنه ولا عن أعماله لنؤرخ له ، وإنما نحن في مقام التعريف لذلك الرجل الذى عاش في القرن الثالث الهجرى ، وإذا كان لى أن أختم هذه الكلمة وما أصعب على النفس ختمها فالى سوى تريد قول شوقى في شعره الخالد عن الزعيم مصطفى كمال إذ ينطبق على أميرنا ابن طولون :

هو دكنى مملكة وحائط دولة وقربيع شهباء وكبش نطاح

وأنتقل الآن إلى الجزء الثانى من هذه المؤاسة فأحدثكم عن زيارتى لجامع ابن طولون

كان ذلك في خريف العام الماضى ، حينما جئت بالقاهرة المعزية ، وكان وقت الأصيل حينما توجهت إلى جامع ابن طولون وارتقت ذلك لأرى أثر أشعة الشمس وقت عروبها ، وما تلقىه من روعة ، على منظر القاهرة ، فإن رؤية ما ذنها العالية وقباب مساجدها التى تعد بالآلاف مما يدخل فى قلبى رهبة وإحساساً فائضاً وحنيناً إلى الماضى وعوداً إليه

ولما صعدت إلى قمة المنارة نظرت إلى أطراف المدينة من مشهد السيدة نفيسة والإمام الشافعى ، إلى القلعة فالسلطان حسن والرافعى ، ثم إلى جامع الجاولى حيث أعجبنى هذا التناسق البديع الفائق الحد الذى يبدو بالنظر إلى القبتين المتجاورتين إذ هما قطعتان من قطع الفن العربى الخالد

ولا أحدثك عن الذكريات التى غمرتني ساعةً وإثماً تسامات كيف حفظت العاصمة كل هذا التراث العربى العظيم ؟ وكيف خرج من كل أدوار التاريخ خالداً ، وهو يدافع المحن ويسمو على طوفان الحوادث ؟

ولا بأس من إيراد حديث دار مع سيدة من كبريات سيدات الغرب ، وقت أن نزلت من المنارة وانجهت إلى محن الجامع ، فقد كانت جالسة على كرسى خفيتنى أحسن تحية ، ثم قالت لى كالماتية لنبرى :

« متى بلغ اهتمامكم بآثاركم العربية هذا الحد حتى أتيت من بيروت لتقضى أجازتك السنوية ، ووقت راحتك فى منادمة أطلال الماضى وما درس من آثاره ؟ »

قلت : بلى أحن إلى هذه الجدران ، وأعرف نقوشها ، وهذه المأذنة والمحارب وهذا المنبر الذى وضعه حسام الدين لاشين ، وما شمعت يوماً بأنى غريب عنها ، بل هى عندي صهورة من صور الماضى الباقي الذى يفيض حياة ، ويلزم فكركى ، واستمد منه قوة على قوة ، وأسير فى هداه ، وأستعير منه الحجة لأقرع بها الحجة ...

وزارة الدفاع الوطني

إدارة المستقرمين

إعلان

تعلم وزارة الدفاع الوطني عن حاجتها إلى مختزل للغة الإنجليزية — ويحيد الكتابة على الآلة الكتابة بنوعها — وسيجري اختبار مقدمي طلبات الالتحاق لهذه الوظيفة بمعرفة مدرسة الهندسة العسكرية التابعة لسلاح المهندسين والأشغال العسكرية بالوزارة وسيمتحن من يقع عليه الاختيار من بين الناجحين في الامتحان في الدرجة الثامنة الماهية المقررة لشهادته يضاف إليها جنيه وخمسة مليم شهرياً مرتباً اختزال وإن كان غير حاصل على مؤهلات دراسية فسيكون تعيينه بمكافأة شهرية قدرها ٥ جنيهات يضاف إليها مرتب اختزال قدره جنيه وخمسة مليم شهرياً فعلى من تتوفر فيه الشروط اللازمة أن يتقدم بطلبه في ميعاد غايته ١١/١١/٩٤٣ برسم حضرة صاحب العزة مدير سلاح المهندسين والأشغال العسكرية بوزارة الدفاع الوطني بشارع الفلكي .

١٣٠٨

ولما تركتها متجهاً إلى الأروقة قلت يا الله ! إن المساجد له ، وهي مع ذلك تملو علواً كبيراً ، ليغمرها العز والسودد والمجدثم تهبط إلى التدهور والتفكك والنسيان حتى يقبض الله لها من ينتشلها من هودتها . فلنتعرف إلى بعض الشيء من عظمة هذه الجدران ...

أقد حمل هذا الثرى الذي أسير عليه ابن طولون وملكه ، وطالما ازدحم هذا الصحن بالأسماء والجنود والعامة ، ولو نطقت هذه الجدران لحدثنا حديث رجال الفقه والتفسير والحديث الذين اجتمعوا هنا لسنين خلت . ولأعادت علينا آيات الكتاب الكريم التي رتل أصوات المؤذنين والشيوخ والقراء التي ذهبت في أعماق الماضي البعيد . أين صناديق المصاحف الطولونية والشعونات التي وضعها الحاكم بأمر الله ؟

أين القناديل المعلقة بالسلاسل التي وصفها المؤرخون ؟ أين الأبسطة والفرش من عبدانية وسامانية التي أمر بها ابن طولون وخص بها المسجد ؟ أين جماهير المصلين وحلقات الدرس والتلاوة ؟

ووقفت أمام المحراب الكبير ، وقلت هنا صلى بالناس ، عندما كل الجامع ، القاضي بكار بن قتيبة إماماً ، وهو مفخرة من مفاخر القضاء المصري في القرن الثالث ، وهدية البصرة لمدينة مصر وعلى منبر في مكان هذا قام أبو يعقوب البلخي يوم الافتتاح خطيباً ؟ ثم جاء الربيع بن سليمان ، وهو من تلامذة الشافعي رضى الله عنه ، بل من أحبهم إلى قلبه ، فافتتح دروسه في إملاء الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام « من بنى لله مسجداً ولو كفح حص قطة ، بنى الله له بيتاً في الجنة » .

ففى أى ركن من هذه الأركان كان هذا الدرس ؟ وأين اللوحة التذكارية لهذا اليوم ؟ لا بد أن يكون مكان هذا الدرس على مقربة من المحراب الكبير ، فلنتأمل ولنترحم على صاحب الدرس وعلى شيعته وأمتاده .

(لحديث صلة)

أحمد رمزي